أمريكا وعبد الناصر وشعرة معاوية

قصة شعرة معاوية

كان معاوية بن أبي سفيان يقول: إنّي لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

ما من شيء ألذَّ عندي من غيظ أتجرَّعه. وأغلظ له رجل فأكثر، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ قال: إنِّي لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

هذه الحِكَم هي التي حكمت العلاقة بين الولايات المتحدة وعبد الناصر لنحو عشر سنوات (١٩٥٥– ١٩٦٥) فبعد صفقة الأسلحة ، وقصة تمويل السد التي كسبهما السوفييت قصُرَت المسافة بين عبد الناصر والسوفييت ، وطالت المسافة بين عبد الناصر والولايات المتحدة حتى بدا لكثير من الناس أن عبد الناصر استبدل السوفييت بأمريكا .

وفي ذلك يقول جيفري ارونسون : " لقد أثبت عبد الناصر لدول العالم الثالث غير المنحاز ليس فقط إنه يمكن الاستغناء عن المساعدات الأمريكية ، وإنما أيضاً أن الأهداف الوطنية يمكن متابعتها بنجاح رغم ما تفضله الولايات المتحدة ، ولذلك كان تباعد عبد الناصر فشلاً من الدرجة الأولى لسياسة الولايات المتحدة بددت الرصيد الضخم للنية المصرية الحسنة تجاه الولايات المتحدة ." [1]

([1]) جيفري ارونسون " العلاقات المصرية الأمريكية " مرجع سابق ص ٢٦٦.

المسئول عن فساد العلاقة بين عبد الناصر وأمريكا

وللحقيقة فإن سياسة دالاس كانت سياسة فاشلة في التعامل مع عبد الناصر فكانت ترمي إلى فرض وصاية على القرار المصري وهذا مالا يرضاه عبد الناصر أو أي حاكم وطني فنَعَم للتحالف مادام يحقق المصالح الوطنية ولا للوصاية التي تتعارض مع الاستقلال الوطني.

لم يكن دالاس هو الشخص الذي يحْمِل نفسه على قبول السلطة المحدودة لدبلوماسية الولايات المتحدة ، خاصة في العالم غير الأوربي حيث كانت تبعية الدول الحديثة تؤخذ كأمر مُسَلَّم به ، وكان سحب عرض بناء السد والبيان الذي تلاه مصمماً كدليل على قدرة الولايات المتحدة لممارسة نفوذ مُتَحَكِّم على مصر/ عبد الناصر ومعاقبة مصر على خطأ سياسة عبد الناصر . ففي ديسمبر ١٩٥٥ قرر دالاس أن يعوق تحوُّل ناصر إلى الكتلة السوفيتية بعرض من المعونة ، وبحلول شهر يوليو ١٩٥٦ كان مصمماً على أن يضع مصر على الحافة بسحب هذه المبالغ، متأكداً أن إثبات عدم ثقة الولايات المتحدة في النظام سوف يجبر مصر بعبد الناصر وبدونه (وهو الأفضل) على إعادة تقييم سياستها الخارجية . [1]

أسباب سحب أمريكا تمويل السد العالي

علَّق المؤرخون على الدوافع التي حدت بدالاس لاتخاذ هذا الإجراء. إذ اتضح بعد ذلك أن اعتراف عبد الناصر بالصين الشيوعية في مايو عام ١٩٥٦ أغاظ دالاس كثيراً مما دفعه إلى سحب المعونات الأمريكية في الربيع .

هناك وجهة نظر أخرى مفادها أن دالاس كان مقتنعاً بأن الرئيس المصري كان يتفاوض مع الروس، بغية الحصول من الولايات المتحدة على عروض أفضل. ومن وجهة نظر دالاس فإن الولايات المتحدة لن تخضع لهذا الشكل من أشكال (الابتزاز)

([1]) جيفري ارونسون " العلاقات المصرية الأمريكية " مرجع سابق ص ٢٥٨.

الدولي، فاختار سحب المساعدات الأمريكية. ويدعي عدد من المؤرخين بأن ما دفع دالاس إلى ذلك التصرف هو الضغوط السياسية المحلية، مدعياً أن مجلس الشيوخ قد فرض القيود على استخدام الأموال بالنسبة للسد. وفوق ذلك، فقد أشار هؤلاء المؤرخون بأن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ الذين يمثلون الولايات المتحدة للقطن قد وقفوا ضد مشروع كان سيمكِّن مصر في المستقبل من منافسة القطن الأمريكي في السوق العالمية وفي وقت كان هناك فائض من هذه المادة. وهناك تفسير آخر هو أن دالاس لم يصدِّق فعلاً بأن روسيا ستفي بوعدها الخاص بدعم مشروع ناصر للسد العالي، وأنه أراد أن يصف الروس بالمكر والخداع من خلال سحب المساعدات الخاصة بالسد العالي. ومهما يكن من أمر فإن عدداً من المعلقين على أزمة السويس قد سجلوا وجهة النظر القائلة بأن دالاس قد سحب الدعم لأنه لم يشعر بأن الاقتصاد المصري كان غنياً بما يكفي لتحمل العبء المالي. لقد صدَّر عبد الناصر إنتاج القطن مقابل السلاح من الكتلة السوفييتية وكان موقفاً صعباً للتعامل مع شريك لا يستطيع أن يدفع ثمن السلاح نقداً. وقد أشار أحد الكتاب إلى أن دالاس قد يشترك مع إيدن والفرنسيين بهدف تقويض قوة عبد الناصر أو دفعه إلى القيام بمغامرة حربية قبل أن يكون جيشه مستعداً للقتال. [1]

تأميم قناة السويس

وأيّاً كانت الأسباب والدوافع التي دفعت دالاس لاتخاذ قرار بسحب تمويل السد العالي فإن رد فعل عبد الناصر إزاء هذا القرار كان عنيفاً وصادماً فقد أقدم على مغامرة غير محسوبة العواقب وهي تأميم قناة السويس . [2] وأتبع القرار حملة ضارية

([1]) توماس .أ . بريسون " العَلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥ " ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ص ١٧٨.

([2]) راجع قصة تأميم قناة السويس كاملة في كتابنا " إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " دار زهور المعرفة والبركة .

على انجلترا وأصدقائها في حلف بغداد وغيره ولم تسلم الولايات المتحدة من شرر هذه الحملة فجاء في خطبة عبد الناصر التي أعلن فيها قراره بتأميم قناة السويس : " اليوم – أيها المواطنون – ودَخْل قنال السويس ٣٥ مليون جنيه ١٠٠ مليون دولار في السنة، ٥٠٠ مليون دولار في الخمس سنين، لن ننظر إلى الـ ٧٠ مليون دولار بتوع المعونة الأمريكية ولا بتوع المعونة الإنجليزية.

اليوم – أيها المواطنون – بعرقنا.. ودموعنا.. وأرواح شهدائنا وجماجمهم؛ اللي ماتوا سنة ٥٦ من ١٠٠ سنة وهم في السخرة، نستطيع أن ننمِّى هذه البلد، وسنعمل وننتج ونزيد في الإنتاج، برغم كل هذه المؤامرات وكل هذا الكلام. وكل ما يطلع كلام من واشنطن حاقول لهم موتوا بغيظكم.. نفس الكلام. " [1]

أمريكا والعدوان الثلاثي

ومن المفارقات أن أكثر الأطراف تضرراً من تأميم قناة السويس كانت بريطانيا وفرنسا، أما أمريكا، التي تسببت بصورة مباشرة في اتخاذ قرار التأميم، فقد أرغمت فيما بعد بريطانيا وفرنسا (المتضررتين) على الانسحاب وأجهضت بذلك العدوان الثلاثي، وكانت تلك بمثابة شهادة وفاة للإمبراطورية البريطانية.

كانت نتائج أزمة السويس بعيدة المدى. فقد كسبت الولايات المتحدة نتيجة موقفها المؤيد لمصر والمناهض للمعتدين البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين احترام الدول العربية. وهبط النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط إلى أدنى مستوى وصل إليه. وبدأ البريطانيون والفرنسيون بسحب قواتهم – وتم الانسحاب الكامل – ودخلت قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة إلى مصر للإشراف على عمليات الانسحاب.

([1]) من خطاب تأميم القناة بتاريخ ٢٦ / ٧ / ١٩٥٦ .

وأدى الموقف الأمريكي في العدوان الثلاثي إلى تحسُّن مؤقَّت في العلاقات بين مصر وأمريكا، وكان عبد الناصر يردد أن مصر لا يمكنها إلا أن تشعر بعرفان الجميل حيال الموقف الأمريكي الذي اتخذه أيزنهاور من أزمة السويس عام ١٩٥٦، عندما وقفت أمريكا مع المبادئ بصرف النظر عن الصداقات.

ولكن ما لبث عبد الناصر أن كفَّ عن إسناد الفضل الأول للولايات المتحدة الأمريكية في إجبار الدول التي اشتركت في العدوان الثلاثي على العودة من حيث جاءت بل أكثر من ذلك فإنه بدأ في تعظيم دور الاتحاد السوفيتي في جلاء العدوان.

وفي رده على سؤال مندوب شركة "كولومبيا" للإذاعة : لماذا لم تعودوا تعترفون بدور أمريكا في وقف العدوان سنة ١٩٥٦؟

قال عبد الناصر : لقد شرحت وجهة نظري في هذا الأمر بالتفصيل في الأيام التي أعقبت العدوان، لقد أعطيت الفضل الأول للشعب المصري الذي حارب في بورسعيد، وأعطيت الفضل للشعوب العربية التي تضامنت في إحباط العدوان، وشكرت للرئيس "أيزنهاور" دوره في الوقوف مع المبادئ، كما شكرت لروسيا تدخلها لوقف العدوان، وكذلك قدمت للأمم المتحدة تقدير الشعب المصري. ولقد كان ذلك منذ ما يقرب من عام ونصف عام، فهل ينبغي على أن أداوم على تكراره كل يوم ؟ [١]

وفي الوقت الذي بدأت فيه إسرائيل بالانسحاب من سيناء في شهر ديسمبر ١٩٥٦، كانت غير راغبة في إعادة سيناء كلها وقطاع غزة والسيطرة على خليج العقبة إلى مصر. فقد كانت إسرائيل بحاجة إلى حق المرور في الخليج وعندما هددت الأمم المتحدة بفرض العقوبات على إسرائيل تدخل الوزير دالاس. وأبرم اتفاقية مع الإسرائيليين يجلون بموجبها كل قوَّاتهم عن شرم الشيخ وقطاع غزة مقابل ضمان حق حرية المرور عبر مضائق تيران.

([١]) من حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى "فرانك كيرنز" مندوب شركة "كولومبيا" للإذاعة ١٩٥٨/٠٤/٠٦. *راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .*

وحظيت الولايات المتحدة باحترام الدول العربية المؤقت لجهودها في تحقيق السلام ولتأمينها انسحاب القوات الانكلو – فرنسية والإسرائيلية. " [1]

وكانت وقفة أمريكا الحازمة ضد أكبر حلفائها (انجلترا وفرنسا وإسرائيل)، والمعونة الاقتصادية التي استمرت في منحها لعبد الناصر فرصة ذهبية لعلاج سوء التفاهم بين عبد الناصر والولايات المتحدة الذي نشأ جرَّاء صفقة الأسلحة السوفيتية، وسحب أمريكا لتمويل السد، لكن يبدو أن عبد الناصر كان قد قرر التحالف مع السوفييت والوقوف ضد المصالح الأمريكية حليفة إسرائيل الكبرى عدوة العرب الأولى فقد كان مشروع الزعامة القومية يتعارض مع التقارب مع أمريكا وحلفائها ويتقارب مع السوفييت وحلفائه.

جحود عبد الناصر الدور الأمريكي في أزمة السويس

وعلى الرغم من أن المؤرخين يجمعون على أن دور إيزنهاور في الأزمة كان وراء إجبار البريطانيين والفرنسيين على إلقاء السلاح. وأن الإنذار الروسي ما كان إلا بلاغة مُنَمَّقة ودعاية إعلامية . [2] إلا أن عبد الناصر قد تجاهل هذا وأصر على ادَّعاء أن الإنذار السوفيتي هو الحاسم في جلاء العدوان رغبة في التقرُّب من السوفييت وابتزاز الأمريكان لمزيد من المساعدات .

يقول السادات: " كان على عبد الناصر أن يتعلَّم الدرس مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن نكون على خلاف مع أمريكا ، ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجده بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار السوفييتي وينسب إلى السوفييت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من

([1]) توماس .أ . بريسون " العَلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥" ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ص ١٨٧ .

([2]) توماس .أ . بريسون " العَلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥" ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ص ١٨٦.

مجافاة للحقيقة ، فالذي جعل هزيمتنا تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكي، وليس الإنذار الروسي ، هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسي المحترف كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا ، ولو ومن باب ضرب إستراتيجية إسرائيل التي كانت تسعى إلى العكس.

ولكن هكذا كان عبد الناصر تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصح له فقد كان همهم أن يضخموا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم." [١]

ولا يمكن أن نُبَرِّأ سياسة أيزنهاور من المساهمة في انحياز عبد الناصر إلى السوفيت في هذه المرحلة فالإدارة الأمريكية أغفلت طلبات مصر من الإمدادات الطارئة من المواد الغذائية والملابس والوقود والأدوية. أما السوفييت فقاموا بشحن الإمدادات الضرورية، وفقدت الولايات المتحدة فرصة ذهبية قدمتها للسوفييت الذين حققوا مكتسبات في الشرق الأوسط في أعقاب أزمة السويس. [٢]

يقول هيكل في كتابه " عبد الناصر والعالم " في ١٩٥٧ كانت مصر في حاجة إلى الأدوية والمضادات الحيوية لمعالجة جرحى العدوان على السويس . وكانت أرصدة مصر الإسترلينية في الولايات المتحدة قد جمدت كليّاً إثر تأميم قناة السويس. فطلبت مصر من الحكومة الأمريكية الإفراج عما يكفى من الأرصدة لشراء الأدوية الحيوية . لكن دالاس رفض ولم يغفر له عبد الناصر إطلاقا هذا الإجراء الانتقامي."

***

([1]) أنور السادات " البحث عن الذات " المكتب المصري الحديث ط٣ ص ١٦٠ .

([2]) توماس .أ . بريسون " العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ إلى ١٩٧٥" ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ص ١٨٩ .